سورة البروج

هذه السورة العظيمة، سورة ذات موضوع واحد، ولها مقاصد عظيمة، يمكن أن نجملها بثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: بيان منزلة المؤمنين عند ربهم.

المقصد الثاني: الأثر الذي يحدثه الإيمان في العلاقات بين البشر.

المقصد الثالث: تمجيد الرب نفسه، وحكمته في قدره، وشرعه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾﴾: السماء هي هذا البناء المحكم العلوي، الذي فوقنا. وهي السقف المرفوع: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء٣٢]، وما نبصر منها إنما هو السماء الدنيا،سميت بذلك لدنوها من الأرض. وصف الله هذه السماء بأنها ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ قيل: إنها النجوم والكواكب، وقيل: إنها القصور السماوية، التي تنزل فيها النجوم، والكواكب كما قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١] . وأصل هذه الكلمة البروج مأخوذ من البروز، والظهور. ولهذا سميت القلعة، برجاً، لبروزها وظهورها. ومنه قولهم: تبرجت المرأة، إذا برزت للناس وأظهرت محاسنها. فمن قال إنها القصور، نظر إلى قول الله تعالى ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء:٧٨]، بل إن بعضهم قال: إن في السماء قصوراً تأوي إليها الملائكة. ولكن لا دليل عليه يؤثر فيعتمد عليه. والأقرب، والله أعلم، أن المقصود بالبروج المنازل التي تنزل فيها الكواكب، والأجرام السماوية، وعدتها اثنا عشر برجاً، وهي التي تسميها العرب: الحمل، والثور، والسنبلة، والجدي، والميزان، والعذراء، وهكذا. وقد كانوا يدركون من الأفلاك سبعة، أو ستة، ويجعلون كل نجم، أو كوكب يختص بشيء من هذه الأبراج.

وهذا قسم عظيم، لأن هذا الخلق الهائل، لا يدرك مداه إلا الله، ولهذا قال ربنا في آية أخرى ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ ﴾ [الواقعة٧٥-٧٦] فمواقع النجوم هي هذه البروج التي تنزل فيها النجوم في أوقات مقدرة.

﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ ﴾: لا أعلم فيه خلافاً أن المراد به يوم القيامة؛ لأنه يوم وعد الله فيه العباد، أو أوعد به العباد لجمعهم فيه .

﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ ﴾: (شاهد): قيل إنه يوم الجمعة،(ومشهود): قيل يوم عرفة، فيوم الجمعة شاهد لأنه يشهد لمن حضرها،والمشهود يوم عرفة لأن الناس تشهده. ولكن هذا تفسير للشيء ببعض أنواعه، واللفظ أعم. فإن يوم الجمعة يصلح أن يكون شاهداً ومشهوداً؛ فهو شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره،كما أن يوم عرفة أيضاً شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضـره. فالراجح ما ذهب إليه ابن القيم [1]أن الشاهد، والمشهود، أي المُدْرِك والمُدْرَك، والعالم، والمعلوم، والرائي، والمرئي. فكل ما دل عليه اسم الفاعل، وما دل عليه اسم المفعول، يدخل فيه .

﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ﴾: قيل إن هذا هو جواب القسم. يعني قد قتل أصحاب الأخدود. وقيل إن جواب القسم (لتبعثن). والأقرب أن تكون على الظاهر، دون المضمر، فقد قال الله ﷻ: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾. ليس هذا القسم لإثبات هذه الحادثة وحسب، فإنها تثبت بمجرد خبر الله ﷻ، وإنما لتفخيمها، وتعظيمها ، فإن هذه الحادثة، حادثة عظيمة جداً، جرت في زمن متقدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى هدى بعض الناس، في بلاد اليمن، فآمنوا بالله، قيل إنهم كانوا من النصارى الموحدين، ثم إن ملك زمانهم، والملأ من قومهم، نقموا عليهم نقمة شديدة، وأرادوا حملهم على الرجوع إلى دينهم، فأبوا، واعتصموا بالله عز وجل، فما كان من قومهم إلا أن خدُّوا لهم الأخاديد في الطرقات، والأخدود هو الشق في الأرض، وأضرموا فيه ا النار، ثم عرضوهم على النار، وهم قعود على كراسيهم، يتفكهون،

---

[1] زاد المعاد (398/1).

ويقولون لأحدهم: إما أن ترجع إلى دينك، ودين أبائك، وأجدادك، وإلا قذفناك فيها.

وثبت الله المؤمنين بالقول الثابت، فصاروا يلقونهم في النار، ويستمتعون بمرآهم، وهم يحترقون، ويشمون رائحة شوائهم، ولا يبالون. قيل إن الله تعالى، كان يقبض أرواح المؤمنين، قبل أن يهووا في النار، فلا يجدون حرها. وهذه الحادثة موافقة لما قص النبي ﷺ، من قصة الغلام المؤمن[٢].

فخلد الله ذكر هذه الحادثة في كتابه، قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، فيه أسوة، وعبرة لكل المؤمنين، على مر الأزمان، إذا لقوا من أهل الكفر والطغيان أذىً، وفتنة، تذكروا ما جرى لإخوانهم الذين حرقوا في الأخاديد، فأثنى الله عليهم، وزكاهم، ووعدهم، وتوعد مخالفيهم، وعاقبهم العقاب الدنيوي، قبل العقاب الأخروي. ولهذا دعا عليهم، فقال (قتل) يعني لعن.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾: هذا بدل اشتمال؛ لأن الذي في الأخدود نار تضطرم، فيها الوقود الذي أوقدت به من الحطب وغيره.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾: يعني أنهم استحقوا اللعنة، والقتل، أشد ما يكون، حال كونهم قعوداً، شاهدين، حاضرين، يتفكهون، ويتلذذون بمرأى المؤمنين وهم يعذبون، ويحترقون. فلهذا آشتد غضب الله عليهم، ونكاله، وبغضه لهم في هذه الدنيا، فوق ما يأتيهم في الآخرة.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾: يعني حالهم أنهم شهود، حضور، شاهدين على أنفسهم، ما فعلوه مكرهين، مضطرين، بل بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم، ليقفوا هذا الموقف.

---

[٢] التي وردت في الصحيح، حتى إن النبي ﷺ حدث ببعض تفاصيلها فقال"... جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ"رواه مسلم (3005). فألقت بنفسها وولدها في النار.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: يعني ما نقم هؤلاء الكفار من المؤمنين، وما أنكروا عليهم شيئاً، من خلق، ولا من سلوك، ولا غيره ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾! فلما آمن هؤلاء الموفقون، نقم الملأ عليهم، وغاظهم ذلك، مع إنهم ما تعرضوا لهم، ولا أخذوا مالهم، ولا ضربوا أبشارهم. لكنه الحقد الدفين في قلب الكافر على المؤمن. فبين المؤمن والكافر نفرة شديدة؛ فلا يتواءمان، ولا يتساكنان، ولا يجتمعان.

فالإيمان والكفر ندان، نقيضان .

فكل صاحب حق، فارق صاحب باطل، فإن صاحب الباطل يجد في نفسه من التغيظ عليه، والنفرة منه، ما يحمله على أذيته. تجد الإنسان يكون بين طائفة من الغافلين، ثم يلقي الله تعالى في قلبه الإيمان، ويستقيم على الدين، فيتعرض للأذى الحسـي، والأذى المعنوي، فينبزونه بالألقاب، ويؤذونه؛ لأنهم يرون أنه تميز عليهم، وارتقى عتبة، ودرجة في السلم، وهم بعد لا يزالون في الحضيض.كذلك المبتدعة مع أهل السنة، حينما يدع الإنسان البدعة، ويلزم السنة، ويقول: لا أعبد الله إلا بما شرع على لسان نبيه ﷺ، ينبزونه بالألقاب السيئة، يريدون أن يردوه إلى حاله. فلهؤلاء سهم، وكفل، من هذه الصفة، فبين أصحاب الأخدود، وبين المبتدعة والفساق، قدر مشترك في هذا الأمر، لمن تأمل وقد نبه على هذا المعنى اللطيف، ابن القيم، رحمه الله[٣].

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى تنبيه بليغ على أن الله سبحانه وتعالى عزيز، أي قوي، غالب، منيع الجناب، فله عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة المنعة. فلا يظنن ظان أن الله خذل أوليـاءه، بل هو سبحانه عزيز الجناب، لكن له

---

[٣] إغاثة اللهفان (67/1) قال ابن القيم رحمه الله: وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك. وهكذا المبتدع : إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها، فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك، والبدعة خير له، وأنفع وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر ... على الحق ذاك الصبر تحمد عقباه .

حكمة بالغة، فإن الآثار المترتبة على هذا الحدث العظيم إلى يوم القيامة، إن تعد لا تحصى. ففيها من العبر،والدروس الإيمانية، ما ينهل منها أهل الإيمان إلى قيام الساعة. وهو سبحانه (حميد) : أي أنه محمود، ففعيل بمعنى محمود، في ذاته، وشرعه، قدره، وما يجريه. فلم يكن ذلك منه عن غفلة، حاشاه، بل هو لحكمة بالغة.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾: أي أن إيمان هؤلاء القوم بالله ﷻ، كان إيماناً عميقاً، مبنياً على دلائل الربوبية، لم يكن إيمانهم إيماناً تقليدياً، أو لمجاراة، أو لطلب ممدحة من الناس، كلا ! بل هو إيمان عميق، راسخ، يستمد مادته من دلائل الربوبية﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فمن له ملك السموات والأرض، جدير بأن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد سواه. وقد كان ملك زمانهم يأمرهم بعبادة نفسه.

ولهذا احرص يارعاك الله، أن تجعل إيمانك مربوطاً بأشياء ثابتة، لا يكون إيمانك إيماناً سطحياً، عاطفياً، يتعلق بحالة آنية، أو حادثة معينة. اجعل إيمانك مرتبطاً بالثوابت الكونية، بأن الله خالق الأرض والسماء، وتأمل ماقال أصحاب الكهف﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ١٤]، فارفع رأسك إلى قبة السماء! وانظر إلى فجاج الأرض. فليكن تشبثك بدلائل الربوبية الثابتة قوياً.، ولهذا ينتكس بعض من يوصف بأنه استقام، والتزم، وصلح، لأنه استقام استقامة ظاهرية، وتأثر تأثراً آنياً، إثر موقف عاطفي، أو هيجان طارئ، ثم لما زال المؤثر زال الأثر.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى، شاهد، مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فما جرى لهم، لا لهوانهم على الله ﷻ، ولكن لما أعد الله لهم من الكرامة، والفضل، والرفعة في الدنيا والآخرة وتأمل المقابلة بين وصفه لهم بأنهم ﴿ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ وو صفه لنفسه بأنه﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ! يتبين لك مدى طغيانهم وحمقهم، ومدى حلمه وعلمه وحكمته سبحانه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله بآياته الكونية، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، والشرعية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة، ويوم الجمعة فهذه مما شرعه الله تعالى.

الفائدة الثانية: تعظيم حادثة الأخدود، وعدم غفلة الرب عما جرى للمؤمنين.

الفائدة الثالثة: شدة عداوة الكافرين للمؤمنين، وغلظتهم عليهم، كما قال ربنا ﷻ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] وهذه سمة باقية إلى يوم القيامة.

الفائدة الرابعة: نفرة الكافرين من تميز المؤمنين عليهم، ومفارقتهم إياهم بالإيمان. ويتفرع عن هذه الفائدة: نفرة العصاة من أهل الطاعة، ونفرة المبتدعة من أهل السنة.

الفائدة الخامسة: عمق إيمان المؤمنين، وارتباطه بدلائل الربوبية.